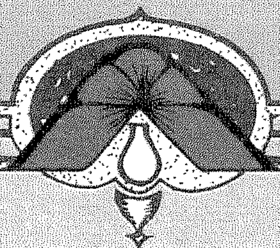
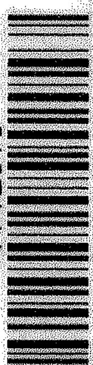


علي يوسف علي

موسى عليه السلام

يتناول موقف موسى عليه السلام مع فرعون ، وبني اسرائيل



دار الجيل
بيروت

موسى

عليه السلام

علي يوسف علي

موسى عليه السلام

يتناول موقف موسى عليه السلام مع فرعون،
وبني اسرائيل

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ-١٩٨٧م

الإهداء

إلى فلسطين الجريحة...
إلى أُولى القبلتين وثاني الحرمين
إلى المخلصين من المجاهدين
الذين سيتحقق النصر على
أيديهم بإذن الله
«وما النصر إلّا من عند الله...»

علي يوسف علي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه دراسة متواضعة وعلى الطبيعة الخالصة... بين نبي الله موسى عليه السلام في حياته، ونشأته، وبينه وبين فرعون.. وبالتالي.. بينه وبين من لا يكادون يميزون عن فرعون نفسه! . في كثير أو قليل... وأعني بهم قوم موسى عليه السلام.

وهي دراسة مقارنة تحمل في طيّاتها الماضي بمساوئه، والحاضر بمآسيه.. لتضعها بين يدي القارئ الكريم ليدرك تماماً كيف أن موسى عليه السلام بقدر ما كافح وناضل، ودافع.. في سبيل الحق.. كان بريئاً من قومه، كما ظلّ بعيداً عنهم روحاً وجسداً، خلقاً وخلقاً، وكذلك كان هارون عليه السلام.

فلقد كان بنو اسرائيل أمة شاذة غاية الشذوذ بين الأمم.. شاذة عما تحمله البشرية من قلب وضمير، أو عقل وتفكير.. لكأنما شاءت إرادة الحق عز وجلّ أن تجعلهم بين الناس ليكونوا عبرة لهم وأن تزج بهم في أوساطهم لا لشيء إلّا ليأخذوا من أفعالهم وأقوالهم وسلوكهم الشائنة عظة لهم في درب الحياة الممتدة ومناكبها المتعرجة.. فلولا الخبيث لما عرف الطيب، ولولا القاذورة لاستعصى على السوي أن يستلذ برائحة العطور...

ومن هنا شاءت إرادة الله عزّ وجلّ أن يرسل فيهم العدد الكبير من الأنبياء. فما أن يذهب منهم نبي حتى يأتي آخر.. لأنّهم قوم لا يعقلون ولتدرك البشرية عن بكرة أبيها مدى تطاير شذوذ هؤلاء الشراذمة، ومدى مغايرتهم للخلق السوي.. الذي خلقه الله ليتعظ بالكلمة الواحدة، ويعتبر بالعبرة الناشدة فور وصولها اليه.

ولعلي بهم إنّما كانوا كذلك لالتصاقهم العنيف بالمادة الجافة أكثر من غيرها وإنما آلوا لما آلوا إليه لاعتبارهم هذه الحياة الفانية هي كل شيء لديهم، فارتضوا بها دون التفاتة الى غيرها.. وأحبوها حباً جماً.. الأمر الذي أدّى بهم لأن يبخلوا وهم جمع كثير.. ولو بذبح بقرة واحدة طاعة لأمر الله، وكأنّما لسان حالهم يقول: لا مانع من أن تذبح عقيدتهم وكرامتهم.. أمّا أن تذبح بقرة يرونها رأي العين تنفق من أموالهم فهذا أمر بعيد المنال.. فبخلوا بذلك. بل جنّ جنونهم بعد أن ذبحوها في حالة غير عادية.. وما كادوا يفعلون وهم الذين تطاولوا سفها حتى قالوا: (يد الله مغلولة غلت أيديهم..)

ومن هنا.. بل من كل ما وقع منهم (ضربت عليهم الذلة، والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله..) فصحبهم الجبن، إذ الجبن والبخل توأمان لا يفترقان فالذي يبخل بماله حري عليه أن يبخل بنفسه فلا يجود بها.. وهم لا يزالون يتخبطون على وجه هذه البسيطة، ينهبون، ويسلبون، ويراوغون، كل ذلك في ذلة بين بني البشر ومسكنة لدى أصحاب المقدرة منهم ليأووهم فيما

يريدون.. مصداقاً لقول الله[1] ، حتّى يُزالوا في خسة ، ويزاحوا في صغار.. فيرجعون إلى طبيعتهم المعروفة ، وفطرتهم المألوفة ، منذ أن كان آباؤهم الأولون. ومن شابه أباه فما ظلم.

علي يوسف علي

(١) في الآية السابقة : ضربت عليهم الذلة.. الخ...

الفصل الأول

موسى قبل الرسالة

«حياته قبل الرسالة»

لقد كانت حياة موسى عليه السلام محفوفة بالمخاطر، محوطة بالمكاره من كل جانب[1] وذلك منذ ولادته.. وحتى آتاه الله الكتاب وجعله رسولاً نبياً... فلقد وجد في عهد سلطة غاشمة عمياء.. وولد في زمان مُلك كله بطش ودماء.. وليس ذلك في رقاب الكبار فحسب.. بل كانت تجز رؤوس الصغار الأبرياء قبل أن يشاهدوا النور أو يروا الأضواء.. فلم تكن هنالك في اعتقادهم طفولة بريئة، الأمر الذي خالفوا فيه قانون البشرية وناقضوا فيه فطرة الإنسانية من يوم أن خلقها الله.

وفي هذا يذكر المولى عزّ وجلّ نبيه الكريم قائلاً ﴿نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾[2].

---

(١) يذكر المفسرون أن هذه القصة إنّما ذكرت للرسول عليه الصلاة والسلام تسلية له فيما يلاقيه من الأعداء حيث لم يجدوا لها سبباً غير ذلك من أسباب النزول.

(٢) سورة القصص الآيتان ٣ ــ ٤ مكية.

فلقد (روي أنه وكل بالحوامل من نسائهم قوابل مولدات يخبرنه بمواليد بني اسرائيل ليبادر بذبح الذكور فور ولادتهم حسب خطته الجهنمية الخبيثة)[1].

وإننا وان لم نتوقع أن خطة كهذه قد تخطر ببال بني الإنسان غير أن هذا هو ما حدث بالفعل.. وتحدث أمثالها بالفعل عبر الأحقاب في كثير من الأحيان[2].

والواقع أن فرعون.. قد ذهب الى أبعد من هذا حيث سوّل له شيطانه أموراً يحسبها أنها تشفي ما في نفسه من حقد وضغينة وخوف.. وكراهية..

فذكر ابن جرير الطبري قائلاً (حدثنا العباس بن الوليد الآملي وتميم بن المنتصر الواسطي قالا حدثنا يزيد بن هارون قال أخبرنا الأصبغ بن زيد قال حدثنا القاسم بن أيوب قال حدثنا سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد ابراهيم خليله أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً واتتمروا وأجمعوا رأيهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني اسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلّا ذبحوه ففعلوا فلما رأوا أن الكبار من بني اسرائيل يموتون بآجالهم، وأن الصغار يذبحون، قال توشكون أن

---

(١) سيد قطب في ظلال القرآن جـ ١ ص ٣٢٣ ط دار احياء التراث العربي بيروت.

(٢) ألسنا الآن نعيش في نكبات القتل والتقتيل على وجه الأرض وماذا نرى في مذابح صبرا وشاتيلا من حق؟ ومن الغريب في الأمر أن الذين فعلوا هذا.. هم الذين فُعل بأجدادهم تلك الفعلة.. وفعل بهم غيرهم الأفاعيل حتى كان «هتلر آخرهم.. لكأنما هي آفة تسري في دمائهم..».

تفنوا بني اسرائيل فتصيروا الى أن تباشروا من الأعمال والخدمة ما كانوا يكفونكم ، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر ، فتقل أبناؤهم ، ودعوا عاماً ، فحملت أم موسى «بهارون» في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان ، فولدته علانية أمه حتى إذا كان القابل حملت «بموسى») [1] .

بل لم يقف الأمر إلى هذا الحد أيضاً فلقد حدثنا ابن جرير فيما حدثه به (محمد بن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن اسحاق قال ذكر لي أنه لما تقارب زمان موسى أتى منجمو فرعون وأحزابه اليه فقالوا له : نعم ، إنا نجد في علمنا أن مولوداً من بني اسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه ، يسلبك ملكك.. ويغلبك على سلطانك ويخرجك من أرضك ويبدل دينك فلما قالوا له ذلك ، أمر بقتل كل مولود يولد من بني اسرائيل من الغلمان وأمر بالنساء يستحيين) [2] فجمع القوابل من النساء بمملكته فقال لهن : لا يسقطن على أيديكن غلام من بني اسرائيل إلّا قتلتنه ، فكن يفعلن ذلك ، وكان يذبح من فوق ذلك من الغلمان ، ويأمر بالحبالى فيعذبن حتى يطرحن ما في بطونهن..

---

(١) الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري جامع البيان جـ ١ ص ٢١٤ ط المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر.

(٢) بمعنى أنه ترك الإناث عند ولادتهن وفي هذا يقال من الجائز أن تسمّى الطفلة امرأة كما يقال أيضاً في قوله تعالى : ويستحيون نساءهم أي يسترقوهن وهو تأويل بعيد كما يذكر الطبري ، راجع جامع البيان جـ ١ ص ٢١٦.

وبالرواية نفسها عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد قال : لقد ذكر أنه كان ليأمر بالقصب فيشق حتى يجعل أمثال الشفار ثم يصف بعضه الى بعض ثم يؤتى بالحبالى من بني اسرائيل فيوقفن عليه فيحز أقدامهن ، حتى أن المرأة منهن لتمصع بولدها فيقع من بين رجليها فتظل تطؤه تتقي به حد القصب عن رجليها لما بلغ من جهدها ، حتى أسرف في ذلك وكاد يفنيهم [1] .

هكذا كان التعذيب والتقتيل ، بل كان النسف والتدمير ، وأعجب ما في الأمر أن هذا كلّه إنما كان لمجرد أقاويل من ألسنة المنجمين وعقب ترهات من أفواه الكهنة المخرفين.. بل كانت لمجرد رؤية منامية ، وأضغاث أحلام تسربل بها تحت دثاره ذات ليلة مشئومة.. فإذا به يصحو وفي يده خنجر يذبح به ويقتل.. فلا عقل ، ولا قانون ، ولا حكمة ، بالله !

حدثني موسى بن هارون قال حدثنا عمرو بن حماد قال حدثنا أسباط بن نصر عن السدي قال [2] كان من شأن فرعون أنه رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني اسرائيل وأخرجت بيوت مصر ، فدعا السحرة والكهنة ، والعافة ، والقافة ، والحازة فسألهم عن رؤياه فقالوا له يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو اسرائيل منه

(١) ابن جرير الطبري جامع البيان جـ ١ ص ٢١٥ ــ ٢١٦ ط الأميرية بولاق مصر .

(٢) المشهور بالكذب هو السدي الصغير « فإن السدي الصغير كذاب ، وكذا الكلبي وأبو صالح ضعيف» أنظر لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي هامش الجلالين ص ٣ ط دار مروان والعربية بيروت .

يعنون بيت المقدس — رجل يكون على وجهه هلاك مصر فأمر ببني اسرائيل أن لا يولد لهم غلام إلّا ذبحوه[1] ، ولا تولد لهم جارية إلّا تركت ، وقال للقبط انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجاً فادخلوهم واجعلوا بني اسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة فجعل بني اسرائيل في أعمال غلمانهم وادخلوا غلمانهم ، فذلك حين يقول الله تبارك وتعالى : ان فرعون علا في الأرض يقول تجبر في الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يعني بني اسرائيل حين جعلهم في الأعمال القذرة يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ، فجعل لا يولد لبني اسرائيل مولود إلّا ذبح ، فلا يكبر الصغير ، وقذف الله في مشيخة بني اسرائيل الموت فأسرع فيهم[2] .

هكذا نشاهد كيف أن المجازر قد أقيمت .. وكيف أن الناس قد عاشوا — ان صحّ أن تكون هذه عيشة — تملأ أنوفهم زفار الدماء البريئة .. في موج متلاطم من الخوف والرعب والجزع والقلق .. كل ذلك لرؤية رآها الحاكم[3] في لحظة مزاج عكر من شيطان رجيم .

(١) هنا استنباط ظريف وطريف لابن جرير حيث يقول : وأضاف الله جل ثناؤه ما كان من فعل فرعون ، ببني اسرائيل من سومهم إيّاهم سوء العذاب ... دون فرعون .. فكذلك كل قاتل نفس بأمر غيره ظلماً فهو المقتول عندنا به قصاصاً وان كان قتله إياه بإكراه غيره له على قتله . راجع جامع البيان جـ ١ ص ٢١٤ .

(٢) ابن جرير جامع البيان جـ ١ ص ٢١٥ ط الأميرية مصر.

(٣) فهو لا تقع كلمته على الأرض خطأ أم صواباً مما يذكّرني بكلمة الحاكم الذي عزل قاضي « قم » لمجرد كلمة واتته وفيها قم عندما قال أيها القاضي بقم قد عزلناك فقم .

وهكذا أصبح فرعون لا يتصرف، تصرف بشر عادي توج بملك عريض.. وإنّما كان يقول انه اله.. فيتصرف كيف يشاء.. ﴿فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى﴾(١).

ولمّا كانت هذه طامة لا تكاد تعادلها على وجه الأرض طامة مثلها.. ومصيبة لا تكاد تصل الى مستواها مصيبة أخرى.. مَنَّ الله على بني اسرائيل بأن نجّاهم من هذا الكرب العظيم وبأن أنقذهم من هذا الكابوس الوخيم.. وجعل يذكرهم بما كانوا فيه وما كانوا يعانونه (واذكروا يا بني اسرائيل اذ نجيناكم من آل فرعون يولونكم العذاب الأليم يذبحون أولادكم ويسترقون نساءكم وفي ذلك بلاء لكم كبير)(٢).

فهل حافظ بنو اسرائيل على هذه النعمة؟ وهل شكروا المنعم عليها؟

---

(١) سورة النازعات الآيتان ٢٣ ـ ٢٤ مكية.

(٢) محمد فريد وجدي المصحف المفسر ص ١٠ ط مطبعة الشعب القاهرة وهي شرح للآيات الكريمة.. وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم... الخ.

مشيئة الله

في وسط تلك المخاوف المهلكة.. ومن بين أنياب زبانية فرعون أخذ الحق تبارك وتعالى بيد موسى عليه السلام فنجّاه من هلاك محقق حيث كان العام الذي ولد فيه هو نفسه عام القتل والتقتيل.. هو عام الذبح لأبناء بني اسرائيل... فأوحى الله الى أمه بما كان سبباً في نجاته وخلاصه.. ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين﴾ (١).

هكذا ألهم الله أم موسى (٢).. بأن تصنع ما أمر الله عز وجل.. وأن لا تقف نوازع العاطفة حائلاً دون التنفيذ.. نعم: إنّه لأمر عجيب.. في ضائقة عجيبة فتذعن أم موسى بأوامر الله رغم ما يعتلج في صدرها وبين حناياها من عواطف الأمومة الجيّاشة التي

---

(١) سورة القصص الآية ٧ مكية.

(٢) فمن مادة الوحي والايحاء: الإلهام الفطري للإنسان كقوله تعالى: وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه «وقوله: وإذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي..» راجع كتاب مباحث في علوم القرآن ص ٢٣ الدكتور صبحي الصالح ط دار العلم للملايين بيروت...

جعلتها تمسك على وليدها حيناً من الزمن حيث كان أمر الله أن يكون الالقاء عند الخوف عليه.. ﴿فإذا خفت عليه فالقيه..﴾.

وها هي تخاف عليه من الطاغية وزبانيته.. فتلقيه في اليم كما أمر الله سبحانه وتعالى.. وكأنما الأمن المحض يؤخذ من بين الخوف المحض وتلك ارادة الله ومشيئته إن شاء خرق بها قوانين الطبيعة.. وهو الفعّال لما يشاء.. فتعد التابوت لوضع فلذة كبدها عليه..

ثم يأتي التطمين مباشرة: ﴿ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين﴾. ولم يكد وحي الله ينتهي حتى أطاعت أم موسى هذا النداء الرحيم المقدس أمرت بصنع صندوق صغير لموسى أرضعته ووضعته في الصندوق وذهبت إلى شاطىء النيل وألقته في المياه، كان قلب الأم وهو أرحم القلوب في الدنيا، يمتلىء بالألم وهي ترمي ابنها في النيل لكنها كانت تعلم أن الله أرحم بموسى منها، إن الله يحبه أكثر منها، والله هو ربه ورب النيل[1] ثم عادت الرجعة حيث كانت..

وأخذ الموج يرفع التابوت مرة ويخفضه مرّة أخرى حتى أدخله في نبات مجتمع من الحلفا عند قصر فرعون فخرجت جواري «آسية» امرأة فرعون وابنتها يغتسلن في الماء فوجدن التابوت فحملنه اليها، فلمّا نظرت اليه ألقى الله الشفقة عليه في قلبها وأخبرت

(١) أحمد بهجت أنبياء الله ص ١٨٥ ط دار الشروق بيروت.

زوجها وقالت له هذا : يكون قرة عين لي ولك ففرح بذلك وقال : لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً[١] .

وقد كان موسى بالفعل ما أن يشاهده أحد حتى يحبّه . . وهي منحة الهية أودعها الله فيه كما تعهده بالحفظ والرعاية . . ﴿وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني﴾[٢] فلا غرو إذا عندما يذكر التنزيل الحكيم قائلاً ﴿وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾[٣] فساعد على إبقائه ذلكم الحب الجارف من زوجته وأنها لم تلد له . . وهو لا يدري ما يخبئه القدر . . طي هذا الطفل الوليد . . ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . . ﴾وهنا يذكرنا الطبري في هذا الأمر بشيء من التفصيل قائلاً (وموسى فيما بلغنا بالقبطية كلمتان يعني بهما ماء وشجر ، فمو هو الماء ، وسا هو الشجر وإنما سمي بذلك فيما بلغنا لأن أمه لما جعلته في التابوت حين خافت عليه من فرعون وألقته في اليم كما أوحى الله اليها وقيل أن اليم الذي ألقته فيه هو النيل دفعته أمواج اليم حتى أدخلته بين أشجار عند بيت فرعون

---

(١) محمد بك غنيم السيرة النبوية ص ١٩ ط مطبعة العلوم ــ القاهرة .

(٢) سورة طه ، الآية ٣٩ مكية .

(٣) سورة القصص الآية ٩ مكية . . . وعليه فهي القائلة لا تقتلوه عسى أن ينفعنا . . كما أنه قيل أنّها لم تلد له . . بخلاف ما ذكر صاحب السيرة السالف الذكر يقول صاحب كتاب أنبياء الله في هذا المعنى وأيضاً كانت حزينة لم تكن تلد وكانت تتمنّى أن يكون لها ولد ص ١٨٦ .

فخرجت جواري آسيا[١] امرأة فرعون يغتسلن فوجدن التابوت فأخذنه فسمّي باسم المكان الذي أصيب فيه ، وكان ذلك المكان فيه ماء وشجر فقيل «موسى» ماء وشجر)[٢] .

فلقد جاء موسى لينبت الخير في قلوب أجدبت من الخير ، وظهر ليُروي نفوساً أشد ما تكون في حاجة الى ماء طهور .. يغسل عنها أدرانها .. وما علق بها من رجس الأوثان والالحاد عبر القرون .. فحفظه الله طفلاً ورعاه من أن تمتد اليه يد الطغيان . (ولقد كانت قصة موسى عليه السلام تبدأ غالباً في السور الأخرى[٣] من حلقة الرسالة لا من حلقة الميلاد حيث يقف الإيمان القوي في وجه الطغيان الباغي ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان في النهاية ، فأمّا هنا[٤] فليس هذا المعنى هو المقصود إنما المقصود أن الشر حين يتمخض يحمل سبب هلاكه في ذاته ، والبغي حين يتمرد

(١) كثير من كتاب المسلمين يكرهون أن يذكروا هذه الأسماء التي أخذ أكثرها من الكتب السابقة ويحبون أن يقفوا عند مواقف القرآن نفسه فلا يصرحون بما لم يصرح به القرآن كامرأة العزيز مثلاً بأنها زليخا وامرأة فرعون كما هنا وأخوة يوسف وأصحاب الكهف وغير ذلك .

(٢) ابن جرير الطبري جامع البيان جـ ١ ص ٢٢٢ ط المطبعة الكبرى الأميرية بولاق مصر كما قال عفيف عبد الفتّاح طبّارة في كتابه مع الأنبياء في القرآن الكريم ص ٢١٩ ط . دار العلم للملايين. قال قيل أن اسمه مركب من كلمتين مو بمعنى ماء وسا بمعنى شجر بالمصرية القديمة. سمي به لأنه التقط من بين ماء وشجر .

(٣) ما عدا سورة القصص كالبقرة ، والأعراف ، وابراهيم مثلاً .

(٤) يعني في سورة القصص .

لا يحتاج الى من يدفعه من البشر بل تتدخل يد القدرة وتأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم)[1] .

هذا ما كان من أمر موسى وفرعون وامرأته .. غير أنهم وجدوه لا يرضع قط من مرضعة .. حتى صعب حاله فخشوا عليه من الهلاك[2] ، تماماً كما خشيت عليه هنالك أمه من هلاكه .. ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ، وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فرددناه الى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [3] . كما يذكر سبحانه وتعالى ذلك منّا عليه فيقول ﴿ولقد مننا عليك مرّة أخرى إذ أوحينا الى أمّك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له ، وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني اذ تمشي اختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن﴾[4] .

---

(١) سيد قطب في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٢١ ط دار احياء التراث العربي بيروت .

(٢) قال تعالى وحرمنا عليه المراضع من قبل...

(٣) سورة القصص الآيات من ١٠ ـ ١٣ مكية .

(٤) سورة طه مكية ..

وهكذا شاءت إرادة الحق جل شأنه أن يرجع موسى الى أمّه بعد أن كانت قد رجعت من قبل في أسًى من دونه.. كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق.

في القصر

لقد سارت الأمور.. من خوف شديد الى أمن أكيد.. ومن توجس وخشية إلى دعة واستقرار.. يسرح فيه موسى على بلاط فرعون ويمرح.. بل ويتربّى كأحسن ما تكون التربية في عهده.. فلقد (بدأت تربية موسى في بيت فرعون وكان هذا البيت يضم أعظم المربين والمدرسين في ذلك الوقت.. كانت مصر أيّامها أعظم دولة في الأرض، وكان فرعون أقوى ملك في الأرض، ومن الطبيعي أن يضم قصره أعظم المدرّسين والمثقّفين والمربّين في الأرض.. وهكذا شاءت حكمة الله تعالى أن يتربّى موسى أعظم تربية[1] وأن يتعهده أعظم المدرّسين، وأن يتم ذلك كلّه في بيت عدوه الذي سيصطدم به فيما بعد تنفيذاً لمشيئة الخالق، وكبر موسى في بيت فرعون.. تعلم الحساب والهندسة والفلك، والكيمياء والطبيعة واللغات)[2].

هذا ما آل اليه موسى.. في قصر فرعون عدوه.. الذي اتخذه

(١) علماً بأن مربيه حقيقة هو خالقه سبحانه، وهو معده لتحمل عبء الرسالة فيما بعد: ولتصنع على عيني..

(٢) أحمد بهجت: أنبياء الله ص ١٨٨ ط دار الشروق بيروت.

بدوره ولداً له (واتخذ فرعون موسى ولداً له فلما كبر كان يركب مركبة فرعون ويلبس من ملبسه ويدعى موسى بن فرعون) [1] يا للعجب العجاب.. أنظر كيف يسير العبد في طريق.. وكيف تهيء الإرادة العليا طريقاً آخر.. لا يتوقعه العبد ولا يدور بخلده (ولمّا بلغ – موسى – من القوة غاية ما يبلغه الشباب منحه الله العلم والحكمة، وبمثل هذا الجزاء يثيب الله المحسنين) [2] وبينما هو كذلك...

فإذا به ذات يوم من أيّام الله يخرج الى المدينة فيدخلها.. وكأنّما قد ملّ القصر وأهله.. يدخلها على حين غفلة من الناس.. وهنالك تقع عيناه على حالة شاذة من شجار غريب بين رجلين أحدهما من شيعته والآخر من عدوه، فاستغاثه الذي هو من شيعته على الذي من عدوه فأسرع موسى لفضّ النزاع... فإذا هو يقتل القبطي الذي يمثل عدوه بوكزة لم يدر أنها ستؤدي الى قتله..

فلقد (شبّ موسى في بيت فرعون وكان قوي الجسم وافر القوة ولم يَخْفَ عليه أنه دخيل في بيت فرعون وأنه اسرائيلي من ذلك الشعب المضطهد فكان عوناً للاسرائيليين يدفع عنهم أذى قوم

---

(١) محمد بك غنيم السيرة النبوية ص ٢٠ ط مطبعة العلوم القاهرة.

(٢) عفيف عبد الفتاح طبارة مع الأنبياء في القرآن الكريم ص ٢٢٠ ط دار العلم للملايين بيروت، وهي معنى الآية: «ولمّا بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين» سورة القصص ١٤ مكية.

فرعون)[1]؛ والواقع أنه (كان أحدهما قبطياً يقال أنه من حاشية فرعون ويقال أنه طبّاخ القصر، والآخر اسرائيلياً وكانا يقتتلان فاستغاث الاسرائيلي بموسى مستنجداً به على عدوهما القبطي)[2]، فما كان من موسى إلّا أن يهرع استجابة للنداء وبينما هو يعالج الموقف.. فإذا بوكزة منه تردي العدو قتيلاً... (فوكزه موسى فقضى عليه) والوكز الضرب بجمع اليد والمفهوم من التعبير أنها وكزة واحدة كان فيها حتف القبطي مما ينبيء بقوة موسى وفتوته ويصور كذلك انفعاله وغضبه، ويعبّر عمّا كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به ولكن يبدو من السياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطي[3].

وقد تناولت الآية الكريمة وصف تلك الحالة بأكملها.. ﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه. قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضلّ مبين قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾[4].

(١) عفيف عبد الفتاح طبارة مع الأنبياء في القرآن الكريم ص ٢٢١ ط دار العلم للملايين بيروت.

(٢) سيد قطب في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٢٩ ط دار احياء التراث العربي بيروت.

(٣) المصدر السابق جـ ٦ ص ٣٣٠ ط دار احياء التراث العربي بيروت.

(٤) سورة القصص مكية الآية من ١٤ ــ ١٧.

القتل الخطأ

إن ما فعله موسى عند التقائه بالمتخاصمين المقتتلين.. من توجيه الوكزة للذي من عدوه.. والقضاء عليه.. كانت فرصة لأعداء الإسلام وخصومه.. حيث استغلوها للنيل بالطعن.. فلقد (أثار بعض المستشرقين الشبهات على هذه الحادثة بأن موسى ارتكب معصية بقتله نفساً بينما يدعي الاسلام عصمة الرسل للرد عليهم نقول: القرآن أوضح أن موسى وكز الرجل ليمنع عدوانه على اسرائيلي والوكز في اللغة هو الضرب بجمع الكف فقد وكزه موسى ولم يرد قتله. هذا مع العلم بأن موسى لم يكن نبياً ولا رسولاً حين وكز خصمه)[1].

وقد حلل الرازي ذلك الموقف قائلاً «لكن موسى قتله خطأً وأنه لم يقصد إلّا تخليص الذي من شيعته من ذلك القبطي فتأدى به ذلك الى القتل من غير قصد.. إلى أن قال: وأمّا قوله: هذا من

(١) عفيف عبد الفتاح طبارة مع أنبياء الله في القرآن الكريم ص ٢٢١ ط دار العلم للملايين بيروت علماً بأن النبي هو.. الذي لم يؤمر وجوباً بالتبليغ.. والرسول ما أمر بالتبليغ وجوباً وعليه فكل رسول نبي ولا عكس.. ومن هنا كان الأولى أن يسمي عنوان كتابه.. مع أنبياء الله المرسلين على ما يظهر لي والله أعلم..

عمل الشيطان ، ففيه وجهان : الأول أن الله تعالى ندبه الى تأخير قتل أولئك الكفّار الى حال القدرة ، فلما قتل فقد ترك المندوب. فقوله هذا من عمل الشيطان معناه إقدامي على ترك المندوب من عمل الشيطان. والثاني أن يكون المراد أن عمل المقتول عمل الشيطان ، والمراد بيان كونه مخالفاً لله تعالى مستحقاً للقتل ، ويكون قوله « هذا » إشارة الى المقتول بمعنى أنّه من جند الشيطان وحزبه ، يقال فلان من عمل الشيطان أي من أصحابه »[١] .

ولا ينافي هذا كلّه .. أن الوكزة وقعت في ثورة غاضبة .. بلى (فقد كانت من الغضب والغضب شيطان أو نفخ من الشيطان)[٢] . هذا .. ولقد استطرد إمامنا الفخر .. في إزالة هذه الشبهات قائلاً : « فأما قوله : رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي » فعلى نهج قول آدم « ظلمنا أنفسنا » والمراد أحد الوجهين إما على سبيل الانقطاع الى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وإن لم يكن هناك ذنب قط[٣] أو من حيث حرم نفسه الثواب على فعل المندوب. وأمّا قوله : فاغفر لي « فالمراد اقبل من هذه الطاعة والانقطاع اليك » ، وأمّا قوله « فعلتها إذاً وأنا من الضالين » فلم يقل اني صرت بذلك ضالاً ولكن فرعون لما ادعى[٤] أنه كان كافراً إلى

(١) فخر الدين الرازي عصمة الأنبياء ص ٩٠ ط دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) سيد قطب في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٣٠ ط دار احياء التراث العربي بيروت.

(٣) ولقد خالف البعض أن لا يقع ما يوجب الذنب من الأنبياء غير أن الله يغفر لهم.

(٤) ولسوف يأتي قريباً بإذن الله كيف أن فرعون نفسه قد اتخذ من هذا الحدث =

حال القتل نفى عن نفسه كونه كافراً في ذلك الوقت فاعترف بأنه كان ضالاً أي متحيّراً لا يدري ما يجب عليه أن يفعله وما يريده في ذلك[1] .

هذا ولقد خالف عدد من العلماء في أن لا يقع ما يوجب الذنب من الأنبياء.. إلّا أن الله سبحانه وتعالى يغفر لهم تلك الذنوب فور وقوعها.. ولعلّ هذه إنما تكون فيهم لحكمة عليا يريدها الحق تبارك وتعالى.. ولتكون اثباتاً لجانب بشريتهم.. بخلاف الجانب الآخر الذي يحقق عصمتهم في تبليغ ما أمروا به.

وفي مثل هذا المقام يقول صاحب المباحث في علوم القرآن في حق الرسول عليه الصلاة والسلام عند قوله تعالى ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾[2] ويقول (ومن المعلوم أن العفو لا يكون إلّا عن ذنب كما أن المغفرة لا تكون إلّا بعد ذنب ، وقد صرحت الآية بهذا في سورة الفتح ،﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر﴾ فمن العجب بعد هذا القول القرآني الصريح ــ أن يحاول بعض المفسرين ــ كالرّازي ــ أن يثبتوا أن لفظ العفو لا يوحي بالذنب ، وأن الذي

= ذريعة للتشنيع بموسى عليه السلام حيث قال فيه ﴿قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين﴾ الآية ١٧ ــ ١٨ الشعراء مكية.

(١) الإمام فخر الدين الرازي عصمة الأنبياء ص ٩٠ ط دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) سورة التوبة آية ٤٣ مدنية اللهم الا الآيتين الأخيرتين فمكيتان.

عاتب الله به نبيه إنّما كان ارتكابه خلاف الأولى وهو كما يقول السيد رشيد رضا جمود مع الاصطلاحات المحدثة والعرف الخاص في معنى الذنب وهو المعصية[1] وما كان ينبغي لهم أن يهربوا من اثبات ما أثبته الله تعالى في كتابه تمسّكاً باصطلاحاتهم وعرفهم المخالف له ولمدلول اللغة أيضاً)[2].. وعلى كل فقد (يعتبر هذا القتل في القوانين الوضعية قتلاً خاطئاً[3]، لا يقصده من فعله ولا تنعقد عليه نيته وبالتالي لا يكون الجزاء فيه عسيراً، وإنّما ينظر القضاء بالتخفيف الى الواقعة باعتبارها قتلاً خطأً ـ كما أنه ـ لا يمكن اعتبار الواقعة بالتكييف القانوني ضرباً أفضى الى موت، لأن الضرب لم يكن مقصوداً هو الآخر لم يكن موسى يضرب الرجل، كل ما فعله أنه وكزه، بمعنى دفعه بيده أو أزاحه بيده)[4]، وفي النزهة للسجستاني وكزه ولكزه ولمزه ضرب صدره بجمع كفه تلك هي المسألة بحذافيرها.. والتي لاكها كثير من أهل البغي الضلال.. وفي مقدّمتهم كبيرهم فرعون.. وما علينا في نهاية المطاف ازاء هذه

---

(١) والغريب في الأمر أن الرازي نفسه قد وضح هذا المقتضى في تفسيره حيث يقول صاحب الهامش في كتابه العصمة: «وقد زاد المؤلف جواباً على ذلك في تفسيره (٤٦٧/٦) وان سلمنا أن هذه معصية لكن لا دليل على أنه كان رسولاً في ذلك الوقت...». عصمة الأنبياء ص ٩٠ بالهامش ـ قامت بضبطه وتصحيحه وتنقيحه جماعة من العلماء باشراف الناشر.

(٢) الدكتور صبحي الصالح مباحث في علوم القرآن ص ٣٠ ـ ٣١ ط دار العلم للملايين بيروت.

(٣) وأيضاً كذلك الحال في القوانين الشرعية.

(٤) أحمد بهجت أنبياء الله ص ١٨٩ ط دار الشروق، بيروت.

الشبهة.. كما يقال الا أن نعيد الكرة لتلك الحقيقة الجلية الواضحة وهي أن موسى لم يكن آنذاك رسولاً، ولا نبياً.. كما أنه لم يكن يقصد قتلاً بل فضاً للنزاع وازاحة للشجار..

الى مدين

بعد تلك الحادثة العفوية وغير المقصودة من موسى بل وفي صبيحة ذلك اليوم مباشرة يخرج موسى مرة ثانية.. وكأنّه لم يطق القعاد بعد ما حصل.. (فلما كان اليوم الثاني خرج موسى الى المدينة وهو يخاف افتضاح أمره فوجد ذلك الاسرائيلي الذي نصره بالأمس يقاتل فرعونياً آخر، فاستغاثه ذلك الاسرائيلي على الفرعوني وطلب نصرته، فغضب موسى من مشاكسته وميله للخصام وأنبه على ذلك بقوله ـ إنك لغوي مبين ـ) ثم تدخّل بينهما لفض النزاع فخاف الاسرائيلي وظن أن موسى يقصد قتله فخاطبه قائلاً: ﴿أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾، فلم يكد الفرعوني يسمع هذا الاقرار الصريح ـ وقد كان قومه في حيرة من أمر قتيل الأمس لا يعرفون قاتله ـ حتى وافاهم وأخبرهم بخبر موسى[1] غير أن الله لم يترك عبده فقد جاءه ناصح أمين يسعى من أقصى المدينة يحثّه بالخروج من مصر لأن القوم يأتمرون عليه ليقتلوه..﴿قال يا موسى

---

(١) عفيف عبد الفتاح طبارة مع الأنبياء في القرآن الكريم ص ٢٢٢ ط دار العلم للملايين بيروت.

ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين﴾ [١] و(الملأ هم الرؤساء المسئولون عن الأمن وهم يعدون له مؤامرة).. إن الجريمة عادية.. ما الذي أدخل الملأ هنا؟... وجعلهم طرفاً شخصياً في النزاع، ودفعهم للتآمر على قتله، نحسب أن مدير البوليس المصري لم يكن يحب موسى. كان يعلم أنه من أبناء اسرائيل وكان يرى في وصول الصندوق الى قصر الفرعون مكيدة دبّرها له أعداؤه الطامعون في منصبه.. كيف أفلت منه أحد أبناء اسرائيل في العام الذي لا ينبغي أن يفلت فيه أحد [٢].

لقد أصبح موسى في المدينة خائفاً يترقب.. قال تعالى واصفاً تلك الحالة ومصوراً إيّاها كأدق ما يكون التصوير ﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه [٣] قال له موسى: إنك لغوي مبين فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس [٤].. إن تريد الا أن تكون جبّاراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين

---

(١) سورة القصص مكية الآية ٢٠.

(٢) أحمد بهجت أنبياء الله ص ١٩١ ط دار الشروق بيروت.

(٣) يستنصر به أو يستغيث به كما في نزهة القلوب للإمام أبي بكر السجستاني.

(٤) ولم تكد كلمات الاسرائيلي تقع من فمه أمام موسى حتى توقف موسى سكت عنه الغضب وتذكر ما فعله بالأمس وكيف استغفر وتاب ووعد أن لا يكون ظهيراً للمجرمين..» راجع أنبياء الله ص ١٩٠.

وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين﴾[١].

خرج موسى على فوره.. ودونما استعداد للسفر أو أخذ زاد للطريق فالأمر لا يحتمل التأني وقد ائتمر عليه القوم ظلماً وعدواناً ليقتلوه.. خرج وفي قلبه ولسانه ﴿رب نجّني من القوم الظالمين﴾ خرج متجهاً صوب مدين[٢] قال تعالى ﴿ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾[٣].

وهنالك وبعد تلك السفرة المضنية الشاقة يرد موسى ماء مدين وينظر إلى امرأتين لا تسقيان.. بل تبعدان غنمهما عن السقي.. فتعجّب لهما رغم ما كان يعانيه من ارهاق ونصب ثم سألهما قائلاً: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير. فعلم موسى أنهما أيضاً تعانيان من المشقة فهي دار مشقة لا ريب وأخذ موسى بزمام الأمر.. وسقى لهما، ثم تولّى الى الظل قائلاً: رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير.. قال تعالى ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان، قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير، فسقى

---

(١) سورة القصص الآيات من ١٨– ٢٠ مكية.

(٢) مدين بلاد واقعة حول خليج العقبة عند نهايته الشمالية وهي القرية التي كانت مقر شعيب عليه السلام بآسيا الصغرى انظر كتابي مع أنبياء الله ص ٢٢٣ والسيرة النبوية ص ٢٠.

(٣) سورة القصص الآية ٢٢ مكية.

لهما ثم تولى الى الظل فقال : رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾[1] . وهنا تتنزل رحمة الله التي ترعاه دوماً وتعينه من حيث لا يدري أو يتوقع أو ليست هي التي حافظت عليه في وعاء البطن ، ورعته في وعاء الصندوق فهي إذاً جديرة بأن تكلأه في وعاء الدنيا.. وتحفظه من نوائبها.. وها هي بوادر الانفراج من الكرب الذي هو فيه «فجاءته احداهما تمشي على استحياء» (ألا ما أعذب هذه الجملة وما أخف وقعها على الأسماع ، وهي تدلّ على خير ما في الفتيات من جمال هو جمال الحياء. والقرآن ذكر هذه الصفة تنويهاً وثناء على الفتيات المتحليات بهذه الصفة)[2] قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقصّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين[3] .

هذه البلاد لا تتبع مصر ولن يصلوا اليك. هنا اطمأن موسى ونهض لينصرف ، قالت ابنة الشيخ لأبيها همساً ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ سألها الأب كيف عرفت أنه قوي؟ قالت رفع وحده صخرة لا يرفعها غير عشرة رجال. سألها وكيف عرفت أنه أمين؟ قالت رفض أن يسير خلفي وسار أمامي حتى لا ينظر إليّ وأنا أمشي... وطوال الوقت الذي كنت أكلّمه

---

(١) سورة القصص الآيتان ٢٣ ـ ٢٤ مكية.

(٢) عفيف عبد الفتاح طبارة مع الأنبياء في القرآن الكريم ص ٢٢٣ ط دار العلم للملايين بيروت.

(٣) سورة القصص آية ٢٥ مكية.

فيه كان يضع عينيه في الأرض حياءً وأدباً[١] فقال الشيخ[٢] لموسى ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك[٣] وما أريد أن أشق عليك ستجدني ان شاء الله من الصالحين، قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل﴾[٤].

وما له لا يفعل؟.. وقد وجد بيت الشرف الأصيل والعز التليد.. ألم تجئه الطاهرة في حياء الطاهرات..

تزوج موسى إحدى ابنتي[٥] الشيخ الوقور بعد أن قضى أقصى الأجلين على الراجح.. فعن ابن عباس رضي الله عنه: «عاش موسى يخدم الشيخ عشر سنوات كاملة» يرعى الغنم.. ويسقي.. وهو في طمأنينة ودعة.

(١) أحمد بهجت أنبياء الله ص ١٩٤ ط دار الشروق بيروت.

(٢) قال بعض المفسّرين ان هذا الشيخ هو النبي شعيب عمر طويلاً بعد موت قومه وقيل أنه ابن أخي شعيب وقيل ابن عمه، وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب الذين آمنوا به «أنظر أنبياء الله ص ١٩٤».

(٣) يعني من كرمك وجودك وعليه فمن المرجح أن يكون موسى قد أتم العشر لكرم طبعه.

(٤) سورة القصص الآيتان ٢٧ ـ ٢٨ مكية

(٥) قد تكون الكبرى أو الصغرى.. فهن أخوات... ولا داعي للتنقيب فيما لا طائل تحته.

الفصل الثاني
موسى والرسالة

موسى والرسالة

لقد ظل موسى صابراً على دين أجداده من قبل ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب[1] وهو دين الإسلام .. «وكل أنبياء الله على الإسلام ابتداء من آدم الى محمد ، وينصرف الإسلام هنا الى معنى توحيد الله تعالى بالعبادة والقصد والسؤال واسلام الوجه والعمل والنية لله»[2] .

غير أنه لم يكن يتوقع رسالة أو أن يصير كليماً لله عز وجل[3] حتى كان النداء الأعظم من رب الناس اله الناس ﴿ياموسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ تلك هبة الله يعطيها من يشاء من عباده .

---

(١) يعقوب هو حفيد ابراهيم وهو الملقب باسرائيل وعليه فموسى بن عمران هو أيضاً من أحفاد ابراهيم عليهم السلام .

(٢) أحمد بهجت أنبياء الله ص ١٨٣ ط دار الشروق ـ بيروت هذا هو المقصود من كلمة الاسلام إذا أطلقت .. وليس النظام الاجتماعي الذي جاء به خاتم الأنبياء .. فهو متقدم على الأنظمة السابقة .

(٣) وقد قيل جاء الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر .

(والفرق بين سماع موسى عليه السلام كلام الله تعالى وسماعنا له .. أن موسى عليه السلام سمع من الله عز وجل بلا واسطة لكن من وراء حجاب ونحن إنما نسمعه من العبد التالي بعين سماع الكلام اللفظي المتلو بلسانه العارض حروفه لصوته لا من الله تعالى المتجلي من وراء حجاب العبد فلا يكون سماعاً من الله تعالى بلا واسطة)[١] . وهكذا حظي موسى عليه السلام بكلام الله وأوتي الرسالة من عند الله.. فما كان منه الا أن تضرع لربه حامداً شاكراً على نعمه عليه.. طالباً منه سبحانه أن يجعل من يسانده ويؤازره في حمل الدعوة المباركة وتبليغها .. قائلاً ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري ..﴾[٢] ، مبيناً بعض الأسباب.. والله أعلم بها .. ﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ، وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني اني أخاف أن يكذبون﴾[٣] .. ﴿قال رب اني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل الى هارون ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون»[٤] .

فاستجاب الله له ما أراده وأعطاه ما ابتغى ومنحه ما تمنّى ..

---

(١) العلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الالوسي روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني جـ ١ ص ١٨ ط ادارة ــ الطباعة المنيرية بيروت .

(٢) سورة طه الآيات ٢٩ ـ ٣٢ مكية.

(٣) سورة القصص الآيتان ٣٣ ـ ٣٤ مكية.

(٤) سورة الشعراء الآيات من ١٢ ـ ١٤ مكية اللهم الا آية ١٩٧ ومن آية ٢٢٤ الى آخر السورة فمدنية.

كل ذلك من رحمته سبحانه ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ ﴿قال سنشدّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾[1]. وأنّه لمن الواضح جلياً أن المؤازرة مطلوبة في بني البشر جميعا.. مرغوبة فيهم لا تتحقق كبار الآمال الا بها.. ولا يسود الخير الا من خلالها.. ولا ترقى الأمم إلّا عن طريقها.. ولعلّ الموقف هنا.. يحمل ايماء وإشارة.. بل درساً وعظة على أن بنيان الحياة الفاضلة والمجتمع الكريم لا يكون إلّا بالمؤازرة.

وهنا ترد شبهة يدحضها علماء المسلمين وعلى رأسهم العلامة الفخر.. حيث قال على لسان الخصم.. «لما قال الله تعالى: ﴿أن ائت القوم الظالمين﴾) فلم قال في جوابه ﴿إنّي أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون﴾وهذا استغناء عن الرسالة فكان جوابه ليس هذا استغناء عن الرسالة ولكنه إذن في أن يسأل ضم أخيه اليه في الرسالة على ما ذكره الله تعالى في قوله في سورة طه ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ الى قوله ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾ فقال له تعالى ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ وكان في ذلك السؤال مأذوناً[2] ...

وهكذا أصبح موسى رسولاً نبياً ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً﴾ وكذلك كان هارون.. فشد به أزره، وقوّى به ظهره.. فكان مبلغاً مع موسى برسالة واحدة..

---

(١) سورة القصص الآية ٣٥ مكية.

(٢) فخر الدين الرازي عصمة الأنبياء ص ٩١ ط دار الكتب العلمية بيروت..

بشارة الحق

لقد سبق وأن تحدثنا عن طفولة موسى عليه السلام ثم ما وقع له من بعد أن بلغ الرشد.. وما تبع ذلك من هجرته الى مدين والتقائه بالشيخ.. كما عرضنا نبذة قصيرة عنه.. في فصلنا هذا.. ونحن الآن بصدد الرسالة.. في بدايتها.. فلقد (أمضى موسى السنين المتفق عليها في خدمة الشيخ ثم توجّه بأهله نحو الجنوب حتى أدرك طور سيناء وفي ليلة مباركة أراد الله أن يخص موسى بكرامته، ونبوءته، وكلامه.

وكان قد أخطأ الطريق وأمسى لا يدرك أين يتوجه وبينما هو على هذه الحال رأى ناراً على بعد فقال لأهله الزموا مكانكم هذه ناراً أراها من بعيد سآتيكم منها بقبس نستضيء به أو جذوة نصطلي بها، أو أسأل من عندهم النار الطريق فيهدوننا اليه[1] هكذا كان موسى قد «بارح مدين وسار بأهله ليلاً في ليلة شاتية وكانت امرأته حاملاً فأخذها المخاض ورأى موسى ناراً على بعد منه فقال لأهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس.. فلما أتى الى قرب

(١) عفيف عبد الفتاح طبارة مع الأنبياء في القرآن الكريم ص ٢٢٥ ط دار العلم للملايين بيروت.

من ذلك المكان نودي من جانب الطور الأيمن أن يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى[(١)] تلك هي إشارة الحق.. وعندها كانت بشارته..» .

حيث يقول عز من قائل ﴿وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى﴾[(٢)] وهنالك زوده الحق تبارك وتعالى بالآيات الكبرى ليفحم بها فرعون وآله.. ويلقمهم بها حجراً.. بالبينات الناصعات..

﴿وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي[(٣)] فيها مآرب أخرى قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى واضمم يدك الى جناحك[(٤)] تخرج بيضاء من غير سوء آية

---

(١) محمد بك غنيم السيرة النبوية ص ٢١ ط مطبعة العلوم القاهرة عام ١٩٣٨ م.

(٢) سورة طه الآيات من ٩ ـ ١٣ مكية.

(٣) اضرب بها الاغصان ليسقط ورقها على غنمي فتأكله راجع نزهة القلوب في تفسير غرائب القرآن للإمام أبي بكر السجستاني ص ٢٦١ ط دار الكتب العلمية بيروت.

(٤) أي اجمع يدك الى جيبك والجناح ما بين أسفل العضد الى الابط المصدر السابق ص ٢٦١.

أخرى لنريك من آياتنا الكبرى ، اذهب الى فرعون انه طغى ﴾ (١) .

كما قال عز وجل ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري اذهبا الى فرعون انه طغى ﴾ (٢) .

وهنا يتضرع موسى الى ربه طالباً نصرته ، راغباً في تقويته طامعاً في تيسير أمره .. وتسهيل مهمته ﴿قال رب اشرح لي صدري ، ويسّر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني (٣) يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً (٤) من أهلي هارون أخي اشدد (٥) به أزري ، وأشركه في أمري كي نسبّحك كثيراً ونذكرك كثيراً انك كنت بنا بصيراً ، قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ (٦) ..

وجرى كل ذلك .. والأمر غائب من قبل عن خاطر موسى .. وحصل ذلك كلّه ... بعد أن مكث سنين في أهل مدين وهو لا

---

(١) سورة طه الآيات من ١٧ ـ ٢٤ مكية .

(٢) سورة طه الآيتان ٤٢ ـ ٤٣ مكية وكان ذلك في وقت لاحق وطغى بمعنى ترفع وعلا حتى جاوز أو كاد ، راجع نزهة القلوب ص ٢٦١ ..

(٣) يعني رتة كانت في لسانه حبسة قال أبو عمر سمعت المبرد يقول : طول السكوت حبسة راجع المصدر السابق ص ٢٦١ .

(٤) أصل الوزارة من الوزر وهو الحمل كأن الوزير يحمل عن السلطان الثقل المصدر السابق .

(٥) عوني وظهري ومنه فآزره أي فأعانه المصدر السابق .

(٦) سورة طه الآيات من ٢٥ ـ ٣٦ مكية .

يدري ما يسوقه اليه القدر ﴿فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى﴾[1]..

(١) سورة طه جزء من الآية ٤٠ مكية.

رجعة

إنّه لا بدّ لنا من رجعة ولو قصيرة ونحن نتحدّث عن موسى عليه السلام حيث أن عصر ما قبله ، كان له تأثير فعّال في عصره ، ودخل مزدوج في زمانه.. فلقد كان عصر من قبله عصر توحيد ولو في حدود.. ثم (عادت مصر الى نظام تعدد الآلهة بعد فترة التوحيد المضيئة القصيرة التي قضاها فيها يوسف ، أما أبناء يعقوب ، أو أبناء اسرائيل فقد انحرفوا عن التوحيد وقلدوا المصريين لولا بعض أسر ظلت على التوحيد وان أخفت ذلك[1] كان ذلكم العهد هو المعروف بعهد الملوك الرعاة[2] فلقد استقدم يوسف عليه السلام أباه وأولاد أبيه وأحفاده للإقامة بمصر ثم طلب «آنذاك من ملك مصر أن يسكنهم أرض «جاسان» وهي في شمال «بلبيس» من مدنها سفط الحنة ، وكانت العلة في طلب يوسف ذلك لهم أنها أرض مراع وهم رعاة ماشية وكان ذلك على عهد «الملوك الرعاة»

---

(١) أحمد بهجت أنبياء الله ص ١٨٤ ط دار الشروق بيروت.

(٢) أو عهد الأكسوس ولذا نجد من دقة الآيات الكريمة انها عندما تحدثت عن ذلك العهد ذكرتهم بالملوك وقال الملك اني أرى سبع بقرات.. أما من بعدهم فقد ذكروا بكلمة فرعون اذهبا الى فرعون.. وقالت امرأة فرعون.

ثم دار الزمان وجاء أحمس الأول أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة الذين طردوا ملوك الرعاة ثم جاء رعمسيس الثاني (١) فرأى أن بني اسرائيل يتضاعف عددهم ويتزايد نسلهم فخاف أن يكونوا عوناً لأعداء مصر فاستخدمهم في أشق الأعمال لإضعاف قوّتهم وأمعن في تفريقهم شيعاً وأحزاباً» (٢).

(كما جاء وقت على أبناء اسرائيل تزايدوا فيه وتكاثروا واشتغلوا في عديد من الحرف وملأوا أسواق مصر) (٣).

رجعت مصر إلى تعداد الالهة.. والأوثان والأصنام.. والأرباب المتفرقة التي كانت من قبل حين جاءهم يوسف ليؤذن في آذانهم قائلاً ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهّار﴾ (٤)، كما تزايد بنو اسرائيل متكالبين على الدنيا متفانين على الفانية.. فملأوا الأحياء بأبنائهم والأسواق ببضائعهم.. كما عادوا في الوقت ذاته الى ضلالهم القديم.. وهم دائماً على شفا حفرة من الانحراف. «أما أبناء يعقوب أو أبناء اسرائيل فقد انحرفوا عن التوحيد وقلدوا المصريين لولا بعض أسر (٥) ظلّت على التوحيد وان أخفت ذلك».

---

(١) ولعله هو الذي تبنّى موسى غير أنه مات قبل أن يرجع موسى بالرسالة وخلفه ابنه منفتاح فكان هو الذي غرق.

(٢) عفيف عبد الفتاح طبارة مع الأنبياء ص ٢١٧ ـ ٢١٨ ط دار العلم للملايين بيروت.

(٣) أحمد بهجت أنبياء الله ص ٨٤ ط دار الشروق بيروت.

(٤) سورة يوسف مكية الآية ٣٩.

(٥) ومنها أسرة موسى عليه السلام ولذلك نجد الالهام قد انصب على أمته.

فلقد كان دأبهم الغضب من الرسل، والشكّ فيهم، بل وقتلهم ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾ وكأنهم كانوا يفرحون في غيهم.. وعند عدم نصح ناصح لهم.. فاستحقوا بذلك الذلة والمسكنة.. في كل زمان ومكان.. ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق﴾[1] يقول تعالى هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة واحلال الغضب بهم من الذلة بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله واهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم فانتقصوهم الى أن أفضى بهم الحال الى أن قتلوهم فلا كفر أعظم من هذا![2]

هكذا عادت مصر.. وعاد آل فرعون[3] وانقلب بنو اسرائيل على أعقابهم.. فخسروا الدنيا والآخرة.. وذلك هو الخسران المبين..

---

(١) كما فعلوا بزكريا ويحيى راجع المصحف المفسر ص ١٢.

(٢) ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ ١ ص ١٠٢ ط مكتبة التراث الاسلامي سوريا، حلب.

(٣) وأما آل فرعون فإنهم أهل دينه وقومه وأشياعه وأصل آل أهل..» راجع ابن جرير جـ ١ ص ٢١٢ ط المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر.

حدة مزاج

كان موسى عليه السلام نموذجاً حياً خاصاً من بين أنبياء الله المرسلين، ذو عصمة وطاعة وعزيمة[1] كما كان قومه أيضاً نموذجاً خاصاً من بين البشر أجمعين، ذوو ضلال وانحلال.. ولعلّ سبب ذلك إنما يرجع في المقام الأول إلى ذلكم العهد ـ الغريب ـ أيضاً من نوعه في عالم الوجود البشري.. لقد وجدوا في عهد كان يسوده القتل والتقتيل، والذبح في أرواح بريئة طاهرة ونفوس نقية صافية.. تتمثّل في أولئك الصغار الذين لا يعلمون من أمرهم شيئاً.. فضلاً عن أمر فرعون وآل فرعون.. فعاش الناس في ذعر، وقلق.. مما يؤثّر على الجنين[2] تأثيراً مباشراً.. وهبك أنك كنت تعيش ذلك العصر تشاهد بعيني رأسك كيف يذبح الصغار في كل حين يولدون فيه.. وكيف تولول الأمهات دون جدوى وكيف يقف الرجال مكتوفي الأيدي لا حول لهم ولا قوة تجاه هذا الطاغية

---

(١) فهو من أولي العزم من الرسل.

(٢) أثبت العلم حديثاً أن مثل تلك الفواجع تؤثّر على الأمهات وبالتالي على أطفالهن ولعل هذا ما جعلهم مولعين بكراهية العالم.. كل العالم مغرمين بالقتل والمجازر.. كما حدث لهم.

وذيوله الأشرار.. الذين لم يعصونه فيما أمر بل يفعلون ما يؤمرون ؟..
لا شك أنك كنت ستصير نموذجاً ـ أيضاً ـ لشيء ما..

«ولسوف نلاحظ أن موسى يكاد يكون هو الوجه الآخر لابراهيم كلاهما من أولي العزم الكبار غير أن ابراهيم نموذج للحلم والرقة، وموسى نموذج للاندفاع والقوة [١] وعندما ننظر الى بعض تلك المشاهد التصويرية يتبين لنا الأمر جلياً.. وها هو رجل من شيعته يستغيثه فيهرع موسى في اندفاع لإغاثته.. فيقع ما لم يكن في الحسبان.. فيسند الأمر فور وقوعه الى الشيطان ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضلّ مبين﴾ [٢].

ولقد قال موسى ﴿ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ [٣] ثم نرى بعد ذلك حدثاً يجري للذي استنصره بالأمس ﴿فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى : إنك لغوي مبين، فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾ [٤].

ويصبح موسى في المدينة خائفاً يترقب ﴿فأصبح في المدينة خائفاً

---

(١) أحمد بهجت أنبياء الله ص ١٨٩.
(٢) سورة القصص مكية جزء من الآية ١٥.
(٣) سورة القصص مكية آية ١٧.
(٤) سورة القصص مكية جزء من آية ١٨ وآية ١٩.

يترقب﴾[1] ثم ينصح بالخروج .. ﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾[2] وتلك صفة تتكرر كثيراً في حق موسى عليه السلام كما في قوله تعالى ﴿يا موسى لا تخف اني لا يخاف لدي المرسلون﴾[3] وكقوله سبحانه ﴿اقبل ولا تخف انك من الآمنين﴾[4] وقوله ﴿خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾[5] وقوله ﴿لا تخف انك أنت الأعلى﴾[6]. وكما في قوله عز وجل ﴿واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون ، قال رب اني أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل الى هارون ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون﴾[7] .

وهكذا تأتي الآيات على وتيرة متناسقة .. وطريقة متتابعة وان تفرّقت أماكنها وتوزّعت مناطقها.. فلدى السحرة قيل عنه.. ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾[8] عندما صارت حبالهم وعصيّهم يخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى)[9] .

---

(1) سورة القصص مكية جزء من آية ١٨.

(2) سورة القصص مكية جزء من آية ٢١..

(3) سورة النمل مكية الآية ١٠.

(4) سورة القصص مكية الآية ٣١.

(5) سورة طه مكية الآية ٢١.

(6) سورة طه مكية جزء من آية ٦٨.

(7) سورة الشعراء مكية الآيات من ١٠ ــ ١٤.

(8) سورة طه مكية ٦٧.

(9) يتساءل الرازي «كيف جاز لموسى أن يأمر السحرة بالقاء الحبال والعصي وذلك =

وهنا يستوضح العلامة الرازي هذا الأمر وأمثاله متسائلاً «أوليس خوفه يقتضي شكه فيما أتى به؟ جوابه لعله خاف لأنه رأى من قوة التلبيس ما أشفق عنده من وقوع الشبهة على بعض الناس فآمنه الله منه و بين أن حجته تتضح للقوم بقوله تعالى: لا تخف انك أنت الأعلى[1] فكأنّا الخوف إنما انصب عليه لا لنفسه.. وإنّما شفقة وخشية لأتباعه أن يضلوا الطريق من شدة ما رأوه، وشاهدوه لدى السحرة.

وهو رد وجيه ولا شك غير أننا نكاد لا نرى بأساً من الخوف نفسه لأنه جبلة وفطرة نجدها في كل كائن حي[2] وهو صحة لا مرض فيه، وذلك بخلاف الجبن الذي هو نقيضه وهو من حيث المقابلة أشبه بالكرم مع التبذير والشجاعة مع التهور أو المجازفة.

وهكذا ان فات وتجاوز كل واحد من هذه الأمور حده انقلب الى ضده. وهو المنبوذ المبغوض.. فإن تجاوز الخوف حده انقلب الى

= سحر وتلبيس وكفر والأمر بمثله لا يجوز وجوابه ذلك الأمر كان مشروطاً والتقدير ألقوا ما كنتم مكلفون ان كنتم محقين كما في قوله تعالى: «فأتوا بسورة مثله» أي ان كنتم قادرين وأيضاً لما تعين ذلك طريقاً الى كشف الشبهة صار جائزاً. أنظر الى عصمة الأنبياء ص ٩١ ط دار الكتب العلمية بيروت.

(١) الإمام الفخر الرازي عصمة الأنبياء ص ٩١ ط دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) كذلك الحال كما في الإنسان نجده في الحيوان والطيور والحشرات وهو دعامة الحياة في الكائنات الحية أما الاصطلاحات الشعبية في كلمة الخوف فغير صحيحة وآية: ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون لمفسرة بعدم الخوف في الآخرة.

جبن.. والجبن مرض[1] أو تجاوز الكرم حده انقلب الى تبذير وهو أيضاً مرض، أو تجاوزت الشجاعة حدها انقلبت الى تهور وهو أيضاً مرض.. وأما استقامة هذه أو تلك في مكانها الصحيح فهو فطرة وجبلة وطبيعة.. وصحة.. وبفقدانها لا بوجودها يكون الإنسان شاذاً وبالتالي في نفسه مريضاً.. ولما كان موسى عليه السلام حاد المزاج أيضاً كان يخشى أن يضيق صدره غضباً فلا ينطلق لسانه بالحجة الواضحة في حينها وهو الذي وصف بغضبه في الحق غضباً عنيفاً.. قال تعالى ﴿ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفاً﴾[2].

وقد يترتب على ذلك بعض الآثار الحازمة.. في طريق دعوة الحق يقول سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿قال يا هارون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري؟.. قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي﴾[3]. وقال عز من قائل ﴿وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه قال ابن أم ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾[4]، والألواح هي التي قال عنها الحق عز وجل:

---

(١) ولا دخل للخوف بالجبن كما لا دخل للصحة بالمرض والله أعلم وهو عبارة عن انفعال يخص الحذر.

(٢) سورة الأعراف مكية بعض آية ٥٠.

(٣) سورة طه مكية الآيات ٩٢ ـ ٩٣ وجزء من ٩٤.

(٤) سورة الأعراف مكية جزء من آية ١٥٠ وهي في المصحف هكذا قال ابن أم. وفي الكتاب.. يا ابن أم.. ولعلها قراءتان.

﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾[1]. ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾[2].

وهكذا موسى عليه السلام في مزاج حاد.. بين غاضب لله وراض له.

وهنا لا بد لنا من وقفة نجتلي فيها ما قد يكون شائبة ربما تعلق ببعض الاذهان «وألقى الألواح» فلا يخلو إما أن يكون قد صدر الذنب عن هارون عليه السلام ما استحق به ذلك التأديب أو لم يصدر عنه فصدر عن موسى عليه السلام، وأيضاً فلأن هارون نهى موسى في قوله «لا تأخذ بلحيتي» فإن كان موسى عليه السلام مصيباً فيما فعله كان هارون عاصياً في منعه عن فعل الصواب وان كان هارون عليه السلام مصيباً في ذلك المنع كان موسى عليه السلام عاصياً في ذلك الفعل.

تلك هي الأسئلة المتوقعة والإجابة عليها فمن وجهين[3] ـ الأول أن موسى أقبل وهو غضبان على قومه فأخذ برأس أخيه وجره اليه كما يفعل الإنسان بنفسه في مثل ذلك الغضب، فإن المفكر الغضبان

(١) سورة الأعراف مكية الآية ١٤٥.

(٢) سورة الأعراف مكية الآية ١٥٤.

(٣) أما من جوز الصغائر عليهم فقد حمل الواقعة عليه وزال السؤال راجع عصمة الأنبياء ص ٩٢ ط دار الكتب العلمية بيروت.

قد يعض على شفتيه ويقلب أصابعه ويقبض على لحيته [1] فأجرى موسى عليه السلام أخاه مجرى نفسه لأنه كان شريكه فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه في حال الفكر والغضب.

وأمّا قوله «لا تأخذ بلحيتي» فلا يمتنع أن يكون هارون خاف أن يتوهم بنو اسرائيل ـ بسوء ظنهم ـ أنه منكر عليه معاتب له، ثم أخذ في شرح القصة، وقال في موضع آخر «اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل» وفي موضع آخر «يا ابن أم ان القوم استضعفوني» ـ هذا هو الوجه الأول من الإجابة ـ التي تكفل بها الإمام الرازي أما الوجه الثاني فكالآتي:

إن بني اسرائيل كانوا في نهاية سوء الظن بموسى حتى ان هارون عليه السلام غاب عنهم غيبة فقالوا لموسى: أنت قتلته فلما واعد الله موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر وكتب له في الألواح من كل شيء رجع فرأى في قومه ما رأى فأخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحص كيفية الواقعة فخاف هارون أن يسبق الى قلوبهم ما لا أصل له، فقال اشفاقاً على موسى عليه السلام «لا تأخذ بلحيتي» لئلّا يظن القوم بك ما لا يليق [2].

هذا.. ومما يظهر حدة مزاجه أيضاً تلك الانفعالات السريعة

---

(١) هكذا ورد وربما يراد منه الذقن والشارب أو هو خطأ مطبعي والمقصود منه لحيته.

(٢) الإمام الفخر الرازي عصمة الأنبياء ص ٩٢ ـ ٩٣ ط. دار الكتب العلمية بيروت.

طلباً واستجابة ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربه قال رب أرني أنظر اليك ، قال لن تراني ، ولكن انظر الى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً ، فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين﴾[1] .

وعندما سار موسى وفتاه الى الرجل الصالح[2] ثم التقى به موسى ليعلمه مما علم رشداً .. وجعل يحاوره في كل أمر يقع وكل حدث يحدث .. حتى كان فراق ما بينهما.

وكان ذلك بعد أن اتفق معه ـ إن شاء الله ـ أن لا يعصي له أمراً وبعد أن نبه العبد الصالح مقدماً ﴿قال انك لن تستطيع معي صبراً ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ، قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾.

ثم جاءت الخاتمة أو ما قبلها حيث قال : ألم أقل لك أنك لن تستطيع معي صبراً « وأخيراً كانت الخاتمة .. بقوله : ﴿هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ..﴾ .

ولنعرّج قليلاً الى زاوية بني اسرائيل[3] وهؤلاء فحدث عنهم

---

(١) سورة الأعراف مكية آية ١٤٣ .

(٢) يعرف بالعبد الصالح وقيل هو الخضر عليه السلام واختلفوا أهو ولي أم نبي والأولى في نظري أن نقف حيث وقفت الآية ولا نتجاوزها حيث تقول عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً. الكهف مكية ٦٥.

(٣) وسيأتي الحديث عنهم مفصلاً إن شاء الله.

ولا حرج.. ولكثرة ما فيهم من تناقضات وشدة ما عليهم من عقد.. عفا الله عنهم كثيراً.. وأرسل اليهم أعداداً وافرة من الرسل.. لعلهم عن غيهم يرجعون ومن ضلالهم يفيئون.. لقد نسوا تلك النعم ونبذوا آلاء الله عليهم وبقدر ما ذكرتهم الآيات بقدر ما كان تماديهم في غيهم وضلالهم..﴿يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾[1] يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم وما كان فضلهم به من ارسال الرسل عنهم وانزال الكتب عليهم.. كما قال تعالى ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ وقال تعالى ﴿واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: وإنّي فضلتكم على العالمين[2] قال بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان فإن لكل زمان عالماً[3].

---

(١) سورة البقرة مكية الآية ٤٧...

(٢) المراد عالمي زمانهم لأن هذه الأمة أفضل منهم لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم وقيل المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً..) راجع ابن كثير جـ ١ ص ٨٨ ـ ٨٩ ط مكتبة التراث الاسلامي سوريا.

(٣) ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ ١ ص ٨٨ ط، مكتبة التراث الاسلامي سوريا ـ حلب.

وهكذا.. ولعلّ الله سبحانه وتعالى انما اختارهم.. على عالم زمانهم بأن أكثر فيهم الرسل والكتب لما تقدم وأن فصلنا فيه مما أصابهم على يد فرعون وما سبب لهم ذلك من مآسٍ ومخازٍ وعقد نفسية.. يندر أن يخرجها من قلوبهم قليل من الرسل والكتب والله أعلم..

مع فرعون

ان موقف موسى مع فرعون لموقف كله دروس وعظة بل منهج وتربية لمن كان له قلب أوألقى السمع وهو شهيد.. فلقد أمر الله سبحانه وتعالى موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب الى فرعون لدعوته الى دين الحق.. وكان فرعون طاغية يركب رأسه في كل حين ولا يكاد يركبه رأسه في حين ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولاً ليناً[1] لعلّه يتذكّر أو يخشى. قالا: ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى. قال لا تخافا انني معكما أسمع وأرى فأتياه فقولا: إنا رسولا ربك، فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذّبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى﴾[2] وهكذا تلقّى موسى وهارون أوامر ربهما بالطاعة الكاملة وذهبا فوراً الى الطاغية فرعون ومعهما آيات الله البينات.

﴿وقال موسى يا فرعون اني رسول من رب العالمين حقيق علي

(١) مما يجعل أن القول اللين مطلوب حتى ولو في الحالات الميؤوس منها.

(٢) سورة طه مكية الآيات من ٤٢ – ٤٧.

أن لا أقول على الله إلّا الحقّ قد جئتكم ببيّنة من ربكم فأرسل معي بني اسرائيل﴾[١] .

وهنا استشاط فرعون[٢] غضباً.. وأخذ يرغي ويزبد.. ويتحرك يمنة ، ويسرة من الغيظ .. الذي لا يكاد يكبته فهو لا يريد أن يذكّر بإله لأنه نصب نفسه في هذا المنصب.. ثم من هو موسى ؟ عنده.. ألا انه حاول أن يتمنطق.. ولو قليلاً (وشرع يمن ويظهر فضله عليه بأنه تربّى في بيته وهذا يقتضي أن يكون وفياً له ، بعيداً عن كل ما يغيظه ، ثم ذكره فرعون بما اقترفه من قتل الرجل الفرعوني ، وأن من ارتكب جريمة قتل كان آثماً بعيداً عن رحمة ربه.

وليس جديراً به أن يدعي حمل رسالته[٣] فرد عليه موسى بما يقتضيه الحال رداً مفحماً وعرفه بأنه لم يقصد قتل الفرعوني وأنه لما تكالبوا عليه يقصدون قتله خرج فراراً.. وأن الله الذي يرزق من يشاء ويهب لمن يشاء قد أرسله رسولاً.. فأين هذه المواقف من القتل في الأبرياء..﴿قال ألم نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين. قال فعلتها اذاً

---

(١) سورة الأعراف مكية الآيتان ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٢) لعله «منفتاح» الذي خلف أبا رعمسيس لأن الأخير قد مات قبل أن يرجع موسى من مدين. ومن شابه أباه ، فما ظلم.

(٣) عفيف عبد الفتاح طبارة مع الأنبياء في القرآن الكريم ص ٢٢٧ ط دار العلم للملايين بيروت.

وأنا من الضّالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين، وتلك نعمة تمنّها عليّ، أن عبدت بني اسرائيل﴾.[1] وهنا ساد شيء من الهرج والمرج.. وأخذ فرعون وكأنما يشمر ساعد الجد.. ويتجه بعد ذلك الى التحدّي السافر.. بكبريائه النافر..

فأخذ يسأله وما رب العالمين؟ ثم أمر ببناء منارة أو بنيان عظيم يصعد به الى رب موسى وهارون.. كما سولت له نفسه.. فصرخ في هامان قائلاً ﴿يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب، أسباب السموات فأطلع الى اله موسى واني لأظنه كاذباً، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون الا في تباب﴾[2].

ولننظر الى هذا المشهد الكريم لنرى موسى عليه السلام كيف ينطق بآيات الله البينات في الكون والفطرة.. وكيف أن فرعون يستهزيء ويكاد يضحك بملء شدقيه ثم يتزمجر ويفور حتى ليكاد يبكي بأعلى صوته.. وما ينتظر موسى.. حتى يرميه ببرهان فإذا هو يصعق بقدر ما في الحق من قوة وعنف.. انه الأحمق الذي لا يدري كيف يستر حماقته.. ﴿قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين قال لمن حوله: ألا تستمعون: قال ربكم ورب آبائكم الأولين، قال ان رسولكم

(١) سورة الشعراء مكية الآيات من ١٨ ـ ٢٢.

(٢) سورة غافر مكية الآيتان ٣٦ ـ ٣٧.

الذي أرسل البكم لمجنون قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون﴾(١).

هكذا جرى الحوار العنيف بين موسى وهذا الفرعون.. بحق حتى أوشك أن يطير من كرسيه كما طار عقله من رأسه «ان كنتم تعقلون» وأين لمثل هذا الطاغية من عقل؟ أو إيقان.

ولمّا فار به الحال وانسدل عقله من وراء ظهره لم يجد أمامه سوى شيطان التهديد.. ﴿قال لئن اتخذت الهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ (٢) ولم يتركه موسى على تهديده وانفعاله.. فترك المجرم إجرام ﴿قال أولو جئتك بشيء مبين﴾ (٣).

لقد استطاع موسى أن يوقظ فيه نخوة التحدّي.. فهو يعلم أنه غيور عنيد.. فوق ما فيه من ضلال بعيد.. وغباء بليد.. وسرعان ما استجاب فرعون وقبل تحدّيه ﴿قال فأت به ان كنت من الصادقين﴾(٤) نعم.. «لقد أدرك موسى أن الحجج العقلية لم تفلح ، إن الحوار الهادي ينقلب من السخرية الى المن الى التحقير إلى التهديد بالسجن ، أدرك موسى أن وقت اظهار المعجزة قد جاء»(٥).

---

(١) سورة الشعراء مكية الآيات ٢٣ ـ ٢٨.

(٢) سورة الشعراء مكية الآية ٢٩.

(٣) سورة الشعراء مكية الآية ٣٠.

(٤) سورة الشعراء مكية الآية ٣١.

(٥) أحمد بهجت أنبياء الله ص ٢٠٥ ط دار الشروق بيروت.

﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾[1] كان هذا لدى فرعون، وحاشية القصر، بادئ الأمر.. ثم انتقل الى الجمهور.. مع أساطين السحرة الحاذقين حيث قرر فرعون ذلك وارتضاه ولو علم أن في هذا نكبته الكبرى لما أشار وما فعل.. ولكنّها إرادة الله.. ولربما كان فرعون يظن المسألة سحراً.. اذاً فكيف له بسحر مثله أو أقوى منه على ظنه ﴿قال اجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾[2].

والواقع أن السحر كان منتشراً للغاية، وأن السحرة كانت لهم منزلة يحسدون عليها مما جعل الناس يعتقدون في كل أمر خارق للعادة سحراً.. بل ربما ظنوا كل شيء غير عادي سحراً.. وكان ذلك منذ زمن سحيق في عالم البشرية.. ممّا جعل المرسلين يكافحون دون هذا الوباء أحقاباً.. وكان ذلك الى درجة أنهم يؤمنون أحياناً ثم يعتقدون أن ما آمنوا به إنما هو سحر ولعل ذلك من الأسباب الداعية لتعليم الملكين ببابل.. ليميز الناس بين ما هو سحر أو غير سحر ومثل ما قال فرعون.. قال الملأ من قومه ﴿قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه، وأرسل في المدائن حاشرين، يأتونك

(١) سورة الشعراء مكية الآيتان ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) سورة طه مكية الآيات ٥٧ ـ ٥٩.

بكل ساحر عليم[١] وجاء السحرة فرعون قالوا ان لنا لأجراً ان كنّا نحن الغالبين، قال نعم وانكم لمن المقربين﴾[٢].

وذلك أمر بدهي.. لأن (من المعروف في أنظمة الحكم المطلق أن اجتماع وجوه القوم وكبارهم لابداء الرأي أمام الحاكم المطلق لا يعني أكثر من اجتماعهم لتلقي الرأي وترديده بعد ذلك)[٣] ثم ما هي الا لحظات حتى انتهى كل شيء على أفضل ما يرام.. وبهت الذي كفر وسجد السحرة مؤمنين برب موسى وهارون.. لعلمهم بالحقيقة من الخيال والأوهام.. وأدركوا أنهم ﴿انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾[٤].

وهنا نهض فرعون مجنوناً «وقال لهم انه لكبيركم الذي علمكم السحر وقتلهم جميعاً بتصليبهم في جذع النخل، ولم يؤمن فرعون ولا قومه ولكنه أذن لبني اسرائيل أن يسيروا مع موسى حسب إرادته ثم ندم بعد ذلك على اطلاقهم مع موسى»[٥] قال تعالى ﴿وألقي السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى،

(١) فلقد سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم كما قال الحق تبارك وتعالى «ولقد اختلف العلماء هل السحر حقيقة أم لا.. والكثيرون على أنه ليس بحقيقة وإنما تعلم وتفنن وحذاقة في الصنعة ولقد قيل أنهم كانوا قد مسحوا جبالهم بالزئبق. راجع في ظلال القرآن والتصوير الفني في القرآن.. ولقد نجد كثيراً من الحواة اليوم يقومون بأمور مذهلة واذا ما سألتهم قالوا انها مجرد خفة.

(٢) سورة الأعراف مكية الآيات من ١٠٩ ـ ١١٤.

(٣) أحمد بهجت أنبياء الله ص ٢٠٨ ط دار الشروق بيروت.

(٤) سورة طه مكية جزء من آية ٦٩.

(٥) محمد بك غنيم السيرة النبوية ص ٢١ ط مطبعة العلوم القاهرة.

وهارون﴾ ، ﴿قال فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ، قالوا : إنا الى ربنا منقلبون﴾[1] . كما قال تعالى ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل﴾[2]. وكان هذا لأن الله قد أصابهم بضنك في المعيشة ونقص فمن الثمرات لعلهم يرجعون اليه . ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾[3]. والواقع أنهم لم يكونوا أهل تذكرة أو توبة أو إيمان فلقد كانوا يقولون في اصرار الكفر ﴿مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾[4] فهم يعتقدون كل آية سحراً ولأجل هذا كانت كبرى آيات الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلم غير مادية .. وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون . والغريب في الأمر أنهم يتوسلون اليوم بموسى لإزاحة الجدب والكرب .. وقد كانوا بالأمس القريب يستهزئون به ويضحكون في آيات الله ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فقال اني رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون﴾[5] ..

(١) سورة الأعراف مكية الآيات من ١٢٠ ـ ١٢٥.
(٢) سورة الأعراف مكية الآية ١٣٤ وبدايتها : ولما وقع عليهم الرجز.
(٣) سورة الأعراف مكية الآية ١٣٠.
(٤) سورة الأعراف مكية الآية ١٣٢.
(٥) سورة الزخرف مكية الآيتان ٤٦ ـ ٤٧.

ولما يئس موسى منهم.. وعلم أن فرعون وقومه لا يؤمنون.. أمطرهم بوابل من الدعاء عليهم متضرعاً الى الله أن يصيبهم في اقتصادهم بفاقة.. وفي قلوبهم بجدب.. حتى يروا عذابه الأليم ﴿وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم[1] واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، قال: قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾[2].

وهكذا أصيب فرعون وقومه ـ ومنهم هامان وكذلك قارون وان كان من قوم موسى[3] إلّا أنه انسلخ فأصيبوا في الصميم.. ذلك بأنهم انما يحرصون على الدنيا وها هي الدنيا تذهب.. وأراد الله أن يستخلف هؤلاء قوم آخرون.. ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض ونُرِيَ فرعون، وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾[4].

كل هذا وأعرب ما في الأمر أنه لم يؤمن لموسى بالرغم من ذلك الجهد لكثير والتضحية المريرة إلا قليل.. ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية

---

(١) ولربما جأر لذلك الدعاء وتخريب الاقتصاد على كل من انصرف عن الله.

(٢) سورة يونس مكية الآيتان ٨٨ ـ ٨٩.

(٣) قال تعالى: «إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم» سورة القصص مكية جزء من آية «٧٦».

(٤) سورة القصص مكية الآيتان ٥ ـ ٦.

من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾ [١] . أما فرعون فقد أخذه الله نكال الآخرة والأولى جزاء ما عاث في الأرض وأغرق الأبرياء في بحار الدماء وكفر بخالقه ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ [٢] لقد أغرقه الله ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين﴾ [٣] . هكذا يتنازل الآن وهو شأن الطغاة.. لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم فهم يغفلون عن الحقائق حتى تفاجئهم نتائج تكذيبهم لها ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ [٤] . (أي نلقيك على فجوة من الأرض أي ارتفاع من الأرض ببدنك أي وحدك ويقال إنما ذكر البدن دلالة على خروج الروح منه أي ننجيك ببدن لا روح فيه ويقال ببدنك أي بدرعك والبدن الدرع) [٥] ، وهنا يقول الاستاذ عفيف طبارة أن «هذه الآية معجزة علمية للقرآن تشهد أنه وحي الهي وأن محمداً رسول الله حقاً. فالآية تشير الى أن جسم فرعون سيبقى محفوظاً ليراه الناس ويعتبروا برؤية تلك الجثة لمن كان يعتبر نفسه إلهاً.. تذكر التوراة

(١) سورة يونس مكية جزء من آية ٨٣.
(٢) سورة الزخرف مكية الآيتان ٥٥ ـ ٥٦.
(٣) سورة يونس مكية الآية ٩٠.
(٤) سورة يونس مكية الآية ٩٢.
(٥) الإمام أبي بكر السجستاني نزاهة القلوب في تفسير غريب القرآن ص ١٧٩ ط دار الكتب العلمية بيروت.

أن فرعون مصر الذي[١] اضطهد بني اسرائيل كان يستخدمهم في بناء مدينتين (فيتوم ورعمسيس) وقد ثبت من الحفائر الأثرية وجود هاتين المدينتين اللتين بناهما رعمسيس الثاني ، وتذكر التوراة بعد ذلك أن (ملك مصر مات)[٢] .

وكان ذلك عند هرب موسى الى مدين وقبل تلقيه رسالة ربه ، وقد خلف «منفتاح» بن رعمسيس الثاني أباه في الحكم فيكون منفتاح[٣] هو فرعون الخروج الذي أرسل الله موسى اليه لإخراج بني اسرائيل من مصر وهو الذي لحق بموسى عند البحر وغرق ، وبقيت جثته الى الآن كما يذكر القرآن وكما تحقق صدقه في سنة ١٩٠٠ بعد الميلاد ، أي بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن ، فقد عثر على جثته في الحفريات في الأقصر في قبر (أمنحتب الثاني) وجثته اليوم بالمتحف المصري والجدير بالذكر أنه قد ظهر من آثار قبر منفتاح أنه لم يكن مهيئاً كما يجب لدفن ملك مثله لأن موته لم يكن منتظراً فلم يهيأ له قبر خاص[٤] .

هكذا صار عبرة لمن يخشى وتذكرة لمن يتدبر وآية ساطعة للورى .. والحق الذي لا مراء فيه أن فرعون كان عجباً في خلق الله

---

(١) الفصل الأول من سفر الخروج آية ١١ .

(٢) الفصل الثاني من سفر الخروج آية ٢٣ .

(٣) ولقد كان يقول له ألم نربك فينا وليداً .. لأن تربية الأب كمن رباه الابن لا فرق أو لأنه تربّى معهم في قصر واحد .. ولقد كان صورة طبق الأصل من أبيه .

(٤) مع الأنبياء في القرآن الكريم ص ٢٤١ ط دار العلم للملايين بيروت .

ورمزاً للضلال والفجور.. بل سيداً للكفر والالحاد «ولقد بغى فرعون على بني اسرائيل واستطال جبروت الحكم والسلطان ولقد بغى قارون عليهم، واستطال بجبروت العلم والمال وكانت النهاية واحدة هذا خسف به وبداره، وذلك أخذه اليم هو وجنوده»[1].

(١) سيد قطب في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣١٨ دار احياء التراث العربي بيروت.

خاتمة

موسى مع قومه

خاتمة

أردت بهذه الخاتمة أن أتعرض ولو قليلاً.. إلى موسى مع قومه وذلك لأننا في التعرض الى موسى قبل الرسالة.. واليه بعد الرسالة قد أتينا بالشيء الكثير الذي يشير إلى موسى مع قومه ولربما استغنى بهما الفرد عن هذا الموضوع.. غير أننا وجدنا لزاماً علينا أن نتعرض اليه وذلك تكملة للبحث الذي نحن فيه واستيفاء للموضوع واعطاء للحديث جوانبه المختلفة.. والواقع الذي لا مراء فيه أن قوم موسى عليه السلام كانوا هم أيضاً عبرة لمن بعدهم وعظة لمن يخلفهم إلى يوم الدين.

فقد كانوا قساة غلاظاً، قلوبهم كالحجارة أو هي أشد قسوة كما كانوا أشد ما يكونون إلصاقاً بهذا التراب حتى صاروا مثله لا يحسون.. فقلما يرفعون رؤوسهم عن الأرض.. فنظرهم اليها أطول من نظرهم الى السماء أو شئت فقل لا نظر لهم الى السماء الا ما رحم ربي، وهم قلة قليلة.. بين كثرة كثيرة (ان قوم موسى عليه السلام كانوا غلاظاً جفاة الا ترى إلى قولهم بعد مشاهدة الآيات

﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾[1] وكان المراد ذلك[2] حيث مكثوا يعبدون العجل من دون الله برهة من الزمن ، ويرقصون حول ما صنعوه بأيديهم .. وحقاً فقد «لقي موسى الأهوال من بني اسرائيل في سبيل دعوتهم الى عبادة الله وحده ، وكانت المعجزات التي أيده الله بها كافية لأن تنزع منهم كافة رواسب الوثنية ، ورغم هذا فقد كانت تعاودهم الوثنية التي ألفوها طوال عهدهم مع المصريين[3] فلقد رفض عبدة العجل موعظة هارون عليه السلام وهمّ هارون بدوره تحطيم العجل ، ثم خشي أن يتفرقوا متناحرين أو يقتلوه ثائرين .. فلا مناص إذاً من الانتظار ولو بعض الوقت حتى يرجع موسى عليه السلام.

لقد «كان يعرف أن موسى بشخصيته القوية يستطيع أن يضع حداً لهذه الفتنة دون اراقة دماء واستمر القوم يرقصون حول العجل كان السامري ـ لعنه الله تعالى ـ هو صاحب هذه الفتنة القديمة .. فتنة الرقص والتواجد حول الأوثان وهي فتنة لم تزل مظاهرها حية الى اليوم رغم اندثار عبادة الأوثان ويقوم بها الناس في زماننا بحسن نية دون أن يدركوا أصلها القديم ، وكونها ديانة الكفار وعبادة العجل ـ وفي هذا يقول الإمام القرطبي ـ سئل الإمام أبو بكر

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٨.

(٢) عصمة الأنبياء للإمام فخر الدين الرازي ص ٩٠ ط دار الكتب العلمية بيروت.

(٣) الأنبياء في القرآن الكريم عفيف عبد الفتاح طبارة ص ٢٤٢ ط دار العلم للملايين ، بيروت.

الطرطوشي ما يقول سيدنا الفقيه في جماعة من رجال يكثرون من ذكر الله تعالى ، وذكر محمد صلّى الله عليه وسلم ثم أنهم يوقعون بالقصب على شيء من الأديم[1] ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه ويحضرون شيئاً يأكلونه ، هل الحضور معهم جائز أم لا ..؟ أجاب القرطبي[2] على هذه المسألة نقلاً عن أستاذه قال : مذهب الصوفية ـ يقصد الراقصين ـ بطالة ، وجهالة ، وضلالة ، وما الإسلام الا كتاب الله وسنة رسوله ، وأمّا الرقص والتواجد ، فأوّل من أحدثهما أصحاب السامري ، لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل ، وإنما كان يجلس النبي صلّى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار ، إلى أن قال : فينبغي للسلطان ونوّابه أن يمنعوهم من الحضور في المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ، ولا أن يعينهم على باطلهم ، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين[3] ...

وهكذا أورث هؤلاء اليهود[4] هذه الخصلة الماجنة لمن بعدهم

(١) الذي هو الجلد والمراد ما نسميه بالطار.

(٢) راجع كتابنا حضارة .. وعباقرة للتعرف عن شخصية القرطبي.

(٣) أنبياء الله أحمد بهجت ص ٢٣٥ ط دار الشروق ، نقلاً عن القرطبي جـ ١١ في تفسيره .

(٤) جمع هائد أو تائب سمي به اليهود لقول موسى : ربنا إننا هدنا اليك أي تبنا ورجعنا . راجع المصحف المفسر محمد فريد وجدي ص ٢٦ ط الشعب القاهرة.

ضمن ما أورثوه للبشرية من ضلالات وترهات .. وهؤلاء أنفسهم هم الذين أراد بهم موسى عليه السلام الدخول الى الأرض المقدسة لبناء حضارة ، وتشييد مدنية .. والواقع الذي لا مراء فيه أنهم لم يكونوا في يوم من الأيام وعلى مدى تاريخهم الطويل أهلاً لبناء حضارة [١] .. بل غاية ما يصلون اليه بالصاقهم على الأرض انهم ربما أعطوا شيئاً من دلالات الحضارة المادية لغيرهم ، ووهبوا دون ارادة منهم حفنة من التراب الى من يبنون بها القباب لقد كانت البشرية أشبه ما تكون بالطفولة ، في بدايتها تؤثر المادة على المعنى تماماً كالطفل يرمي بالكتاب جانباً ليأخذ لعبة من (لعبه) ولعل البشرية لم تكن في طور يذكر حتى مبعث موسى عليه السلام ، فكانوا يؤثرون العجل.. ويخلطون المعجزات بالسحر. ويرمون الكتاب وراء ظهورهم. فإذا بهم لا تنفعهم أن نجّاهم الله من الغرق [٢] ، وأن أنقذهم من أيدي فرعون وأن أنعم عليهم بالمن والسلوى.. وما إلى ذلك من نعم لا تحصى.. وذلك بخلاف أمة محمد صلّى الله عليه وسلم «فالحمد لله الذي جعل معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم ، وكمال افهامهم وفضلهم على من تقدمهم اذ معجزاتهم حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم» [٣] .

---

(١) علماً بأن نهاية الحضارات هي أن تأخذ الأرض وتتزين ويظن أهلها مما اعتراهم من كبر وعجب قادرون عليها وأن الأمور بأيديهم مصدر الآية.

(٢) قال تعالى (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين) ولقد ثبت موسى قائلاً : ان معي ربي سيهدين وهي كلمة ينبغي أن يلزمها المجاهدون في سبيل الله.

(٣) معترك الاقران في اعجاز القرآن للسيوطي القسم الأول ص ١ ط دار الفكر العربي القاهرة.

إلّا أن الله سبحانه وتعالى قد حفظ موسى عليه السلام كما حفظ أنبياءه. «ولتنظر الى سورة القصص كيف بدئت بأمر موسى ونصرته وقوله: فلن أكون ظهيراً للمجرمين» «وخروجه من وطنه وختمت بأمر النبي صلّى الله عليه وسلم بأن لا يكون ظهيراً للكافرين» وتسليته عن اخراجه من مكة، ووعده بالعود اليها لقوله في أول السورة: إنا رادوه اليك[1].

هذا: ولقد استولى على بني اسرائيل من ضمن ما استولى عليهم من خبائث أمورهم شح فاحش وبخل قاتل الأمر الذي استلزم جبنهم بطبيعة الحال إذ إن البخل يلازم الجبن كما أن الشجاعة يلازمها الكرم، وأكبر ظنّي أن تماطلهم في ذبح البقرة التي أمروا بذبحها من قبل الحق عز وجل على لسان نبيهم موسى عليه السلام إنما كان بوازع شحهم المتأصل في نفوسهم «والصواب من التأويل عندنا أن القوم لم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة للخلتين كلتيهما احداهما، غلاء ثمنها.. والأخرى خوف عظيم الفضيحة على أنفسهم بإظهار الله نبيه موسى صلوات الله عليه، واتباعه على قاتله[2] بل لقد ذهبت بعض الروايات الى أبعد من ذلك، ذهبوا الى أنهم لم يكادوا يفعلون شيئاً بعد ذبحها، فعن الحسن بن يحيى... عن كعب القرظي (فذبحوها وما كادوا يفعلون قال لغلاء ثمنها)[3] أنظر كيف كان هؤلاء وكأنهم ليسوا بالبشر..

(١) المصدر السابق ص ٦٥.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري جـ ١ ص ٢٨١ ط الأميرية ببولاق مصر.

(٣) المصدر السابق ص ٢٨١.

أنظر كيف ترتجف أوصالهم لا لشيء الا لأنهم فقدوا عدداً من الدنانير فباتوا مبهوتين مندهشين لما أنفقوه .. فكأنهم ولسان حالهم يقول ليتنا نرد فنعمل غير الذي عملناه . فما يهمهم إنما هو الدرهم والدينار لا غير فلا تحسبن أنهم ينفرون من ذبح بقرة ، فهم الذين يجرأون على ذبح الإنسان ، وكما كان فرعون يقتلهم[1] كانوا هم أنفسهم يقتلون أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم .. وكما كان « هتلر » يستبيح دماءهم كانوا كذلك يفعلون بالفلسطينيين وقد سلبوا ديارهم وأموالهم .

« فبنو اسرائيل هم بنو اسرائيل مجرد التعامل معهم عنت ، تستوي في ذلك الأمور ، الدنيوية المعتادة ، وشئون العقيدة الهامة ، لا بد أن يعاني من يتصدى لأمر من أمور بني اسرائيل وهكذا يعاني موسى من إيذائهم له واتهامه بالسخرية منهم ، ثم ينبئهم أنه جاد فيما حدثهم به ، ويعادون أمره أن يذبحوا بقرة وتعود الطبيعة المراوغة لبني اسرائيل الى الظهور[2] .. تلك هي طبيعتهم التي نشأوا عليها وهي فطرتهم التي فطروا عليها .. ولعلّ كثرة الخصال الخبيثة وعظمة الجبلة القبيحة فيهم هي التي دعت لكثرة الأنبياء فيهم لعلّهم يؤوبون وإلى ربهم يرجعون .. إلا أنهم لم يتوبوا .. ولم يرجعوا ... فورثوا النتانة والخبث كابرا عن كابر (ولقد قدر لموسى .. زيادة في معاناته ورفعاً لدرجته عند الله تعالى .. قدر له أن لا تكتحل عيناه بمرأى هذا

(١) أي يقتل أبناءهم .

(٢) أنبياء الله أحمد بهجت ص ٢٤٣ ط دار الشروق بالقاهرة.

الجيل. فقد مات موسى[1] عليه الصلاة والسلام قبل أن يدخل بنو اسرائيل الأرض التي كتب الله عليهم دخولها)[2] وذلك بعد أن وجد منهم عظيم العنت، وغاية التعب والإرهاق، فصبر على ذلك في سبيل دعوة الحق عز وجل ورجاء أن يخرج الله من أصلابهم ما تقرّ به الأعين ابتغاءمرضاة الله وطلباً لرضوانه إلا أنهم كانوا شر خلف لشر سلف.. الأمر الذي جعل الرسول صلّى الله عليه وسلم يقول حين يؤذيه قومه في الله قد أوذي موسى بأكثر من ذلك فصبر فصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) وقد مات هارون عليه السلام قبل موسى بزمن قصير. وكان موت موسى عليه السلام ودفنه في التيه ولم يدخل الأرض المقدسة التي طالما عمل للدخول اليها لكن الله يفعل ما يريد.

(٢) أنبياء الله أحمد بهجت ص ٢٤٦ ط دار الشروق القاهرة.

الفهرس